

المرأة الجزائرية :

بين ما كتبه الفرنسيون الكولونياليون و بعض الجزائريين و ما أبرزه الواقع

د.ياسين سعادة

جامعة ابن خلدون/ تيارت

ملخص المقال:

يهدف المقال بالدرجة الأولى إلى الخوض في موضوع ما كتب عن المرأة الجزائرية ابان فترة الاحتلال الفرنسي اين كانت موضوعا بارزا اشتغل به العديد من الكتاب الكولونيين و غيرهم ممن تأثر بهم من الجزائريين. ويرجع اهتمام الفرنسيين بموضوع المرأة كون هذه الأخيرة محورا مفصليا في الصراع الدائر بين المستعمر والمستعمر، وكأنها المعركة الفاصلة و المحددة لمسألة الاستعمار الفرنسي في الجزائر. ويهدف المقال إلى إظهار بعض تفاصيل هذا الصراع وتأثر بعض الجزائريين به.

Résumé :

Le présent article a pour but d'étudier ce qui a été écrit sur le thème « femme algérienne », sachant que cette dernière a été l'objet de plusieurs études et écrits de la part des français défenseurs de l'idéologie des colons et de la colonisation et de quelques algériens qui ont été influencés par ces écrits .le présent article a pour but aussi d'eclaircir et de détailler les dits et les écrits sur la femme algérienne du moment qu'elle était au cœur du conflit colonisateur/colonisé .

" لنملك النساء.....و الباقي يتبعها بعد ذلك"¹. هذه العبارة التي كثيرا ما ردها مسؤولو الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر الذين كان على عاتقهم تحطيم أصالة الشعب الجزائري، و الذين كُلفوا من طرف السلطات الاستعمارية آنذاك بفسخ أشكال التواجد التي بإمكانها التذكير من قريب أو من بعيد على الحقيقة الوطنية، و ذلك بتكريس أقصى تركيزاتهم على لباس "الحجاب" (حايك المرمّة او الملاية) الذي صُوّر كرمز لمكانة المرأة تثبت من جهة خطورة موضوع مكانة المرأة، و حساسيته في الثقافة الجزائرية المقاومة لكل أساليب الإدماج و الانصهار مع الثقافة الفرنسية زمن الاحتلال، و من جهة ثانية هو دليل على أنّ موضوع المرأة موضوع محوري في عملية التثاقف الحاصل مع الاستعمار الفرنسي. و من هنا كان التساؤل الأساسي لهذا البحث : ما هي مكانة المرأة الجزائرية عند الكتاب الكولونيين و الكتاب الجزائريين في الحقبة الاستعمارية؟ و ما مدى مصداقية هذه الكتابات في الواقع ؟

1- حول موضوع المرأة الجزائرية في الأدبيات الفرنسية الاستعمارية:

لقد كان موضوع المرأة الجزائرية من بين أكثر المواضيع تناولاً من طرف الأدبيات الاستعمارية سواء العسكرية منها أو المدنية، و كانت المرأة من بين أكثر الأشياء غير المفهومة في البلاد المستعمرة. فدراسات علماء الاجتماع (أتباع المدرسة الكولونيالية) و المهتمين بالعالم الإسلامي، و الحقوقيين كثيرة في هذا المجال². تالياً، وصفت المرأة كأمة الرجل و خادمتها، ثم المضطهدة و المقهورة، و تبعثها دراسات تعلن أنّها ملكة الدار الأولى، و ما زالت المحاولات التنظيرية إلى يومنا هذا تلقي بظلالها على العديد من الكتابات التي حتى و إن زال الاستعمار عن الجزائر إلا أنّها ما زالت استعمارية في أيديولوجيتها. و خلصت العديد من المحاولات التنظيرية إلى قناعة مفادها أنّ المرأة الجزائرية تحلم بالحرية لكنّ نظاماً أبوياً متخلفاً و دموياً يحول دون هذه الرغبة الشرعية³. و لقد تحدّث العديد من النواب الفرنسيين زمن الاحتلال الفرنسي (و من بينهم أحد مؤسسي علم الاجتماع السياسي ألكسي دو توكفيل Alexis DE TOCQUEVILLE) عن حالة المرأة الجزائرية، و طالبوا بترقيتها اجتماعياً لأنّ ذلك حسب رأيهم هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على المقاومة الجزائرية التي دوّخت العسكريين و المفكرين الفرنسيين. و في هذا السياق ذكر الروائي أوكتاف دوبون Octave DEPONT : "... كل جهود التقارب و الانصهار يمكنها أن تحدث، و لكنّها في خطر الاضمحلال، بل التخطيم أمام أقدام هذه المرأة الحافظة الوفيّة للبيت العائلي، و لنقله، و يمكن القول بأكثر عمومية الحافظة المحافظة على العرق"⁴.

أمّا فرديناند دوشان Ferdinand DUCHENE، و لوي لوكوك Louis LE COQ فلقد سعيا لوصف الشكل المقاومتي المسالم في الكثير من كتبهم، و بالتالي توجّب عليهما إظهار محافظة المرأة المسلمة في الوقت الذي ظهر فيه جلياً روح الانسجام داخل المجتمع المسلم، و ذكرا أنّ هذه المقاومة لتأثيرات العالم الأوروبي تشكّل كابحا لكل تطوّر للعالم النسوي أولاً، و الخليّة العائلية بعد ذلك⁵. أمّا هانوتو و لوتورنو اللذين بنا على كتاباتهما دوركهائم أطروحته حول نظرية التضامن الآلي و العضوي، و تقسيم العمل الاجتماعي فلقد درسا من منطقهم الكولونيالي و لسنوات عديدة أعراف و عادات بلاد القبائل، و شبّها فيها حالة المرأة بحالة العبد دون أدنى قيد منهجي مقارنة مع الرجل القبائلي، و ذلك في تحيّر صارخ غير موضوعي للرؤية الكولونيالية⁶. و لم تقتصر الأدبيات الاستعمارية على الملاحظة فقط بل حاولت استقراء بعض المخطوطات و الوثائق لاستخدامها في قراءات تاريخية أقل ما يقال عنها أنّها متحيّزة. و مثال ذلك ما كتبه المؤرّخ الفرنسي روبرت برونشفيغ Robert BRUNSCHVIG لمّا تحدّث عن شمال إفريقيا : " صرامة المذهب الفقهي في القرنين الرابع عشر و الخامس عشر منعت النساء من الخروج لحضور الاجتماعات الدراسية، حصص التقوى، بل حتى الصلاة الجماعية(و هو ما لم يكن يسمح بتشجيع التطوّر الذهني و الديني). هذه المنهيات كانت تنتهك في بعض الأحيان خاصة في وسط المرابطين (المتصوّفة). لكن رغم ذلك، إنّ خلال القرن الثالث عشر قدمت أم العلي سيّدة العبدية من غرناطة إلى تونس، و سخرت حياتها لتعليم النساء... و ظهرت بعد ذلك الشاعرة زينب في بجاية، كذلك الشاعرة عائشة... و لكن مع الهيمنة المتصاعدة

للمذهب المالكي الصارم لم يعد هناك مثل هذه الأمور"⁷. و الملاحظ على هذا القول هو أنّ فيه خلط كبير لأمر خارجة عن سياقها، فما علاقة حصص التقوى بمكانة المرأة، و ما دخل الصلاة الجماعية مع صرامة المذهب المالكي مع العلم أنّ هذا المذهب له نفس الموقف فيما يخص صلاة المرأة مع كل المذاهب الفقهية المعروفة عند اهل السنّة. من جهة ثانية، إنّ برونشفيغ يحكم على المجتمع المسلم في القرن الثالث عشر من منطق الرجل المعاصر في وقت كانت المرأة في أوروبا و فرنسا بلده تعد نصف إنسان - بل أقل من ذلك - ، و إذا كان حضور النسوة في المجتمع الإسلامي - كما يحلوا لأصحاب برونشفيغ من الغربيين و من العرب كذلك - في القرن الثالث عشر حضورا محتشما تمثل في خروج بعضهنّ لممارسة نشاطاتهنّ التعليمية ، فإنّ هذا الحضور منعدم فيما يخص المرأة الأوروبية في ذلك الوقت. ثم إنّ كلام المؤرخ الشهير برونشفيغ فيه مغالطة تاريخية صارخة هي تأكيده على أنّ المذهب المالكي أصبح مهيمنا كمذهب رئيسي في بلاد المغرب انطلاقا من القرن الثالث عشر، و هو ما تنفيه الحقائق التاريخية.

يظهر جليّا إذا أنّ هذه التأويلات المختلفة عن حقيقة مكانة المرأة تهدف إلى ترسيخ الأيديولوجية الكولونيالية كواقع لا بد منه للنهوض بحضارة على شاكله الحضارة الغربية تخرج هذا المجتمع المستعمر من تخلفه و بدائيته التي كبحت تقدّمه إلى مصاف الدول الأوروبية المتحضرة. طبعاً ، هذه الأحكام و التأويلات هي مغالطات تاريخية جاءت نتيجة الحركة الأدبية و الثقافية التي صاحبت مرحلة الغزو و الاستعمار ثم الاستيطان بعد ذلك. فلقد كان الكتاب الأوائل - و منهم العسكريون - الذين أسمتهم الدكتورة سكيّنة مساعدي "الكتاب السيّاح"⁸ لا يسعون إلى خوض أي محاولة لسرد الحقيقة ، بل كانوا يعرضون على القراء الشغوفين بمعرفة الأدب الدخيل و الشاذ، و الكتابات المبتذلة و الصور السلبية، و كانت شخصية المرأة المستعمرة توظّف لإثارة أحلام هؤلاء الكتاب.

لقد كانت جل كتابات هؤلاء تتمحور حول الروايات المسرحية، و الوضعيات غير المنتظرة، و المفارقات العنيفة، و المغامرات الغرامية و السريّة بين الجندي الفرنسي و الشابة الجزائرية التي لا تزال في سن المراهقة. و اقتصر هذا الأدب في النهاية تضيف مساعدي على تقديم لوحات لماعة كانت تستنسخ مشاهد لعادات لم تكن تمت بصلة للديكور المعتاد في فرنسا، فكانت تصف بكثير من اللذة رقصات بعض العاهرات في الأماكن القذرة الموجودة في تلك الفترة، و طريقة مشي الفلاحات الشابات و نظراتهنّ و هنّ يغدين حافيات للاستسقاء من الينابيع⁹. و يمكننا تلخيص صورة المرأة الجزائرية عند هؤلاء بأنّها مجرد شيء جنسي، و التوضيع النفساني لها هي أنّها من طبيعة بدائية، و هي تمثل القذارة و القرف و الكسل، و هي ذات طبيعة نفسية منحرفة.

و للإجابة على هؤلاء نسرد كلام ابنة الشهيد و أخت الشهيد ابنة الأوراس الأشم الدكتورة سكيّنة مساعدي في كتابها القيم "روايات الاستعمار و المرأة المستعمرة في الجزائر" حيث ذكرت: "... إنّ دراسة موضوع المرأة المحليّة لإبراز

جانباها السلبى فقط، و كشف عيوبها، و معالجتها بالتفصيل، و تقديمها بألوان غريبة ليست على الإطلاق أسلوباً لتبديد الضلال بل تعكس مقاربة فولكلورية و موقفاً أيديولوجياً جلياً" ¹⁰.

2- مشاريع محاربة المقاومة الجزائرية عن طريق معركة المرأة:

كانت مسألة المرأة مرتبطة بالوضع الاستعماري للبلاد التي زعزعت البنى التقليدية للتعليم و التكوين، و لم تعوضهما لا بالعدد الكافي و لا بالعدة الكافية، و لا بالنمط المرضي للمجتمع. و السبب في ذلك بسيط، لأن الاستراتيجية الكولونيالية الهادفة إلى تفسخ المجتمع الجزائري على مستوى الأفراد أعطت أهمية بالغة للمرأة الجزائرية.

في البرنامج الكولونيالي كان على المرأة القيام بالمهمة التاريخية المتمثلة في تغيير الرجل الجزائري. تحويل المرأة، و جعلها تقبل القيم الغربية، و انتزاعها من مكانتها هي في نفس الوقت اكتساب سلطة حقيقية على الرجل، و امتلاك الوسائل العملية و الفعالة لتحطيم الثقافة الجزائرية ¹¹. و قد كان المذهب السياسي للإدارة الاستعمارية واضحاً و محدداً: "إذا أردنا ضرب المجتمع الجزائري في بنيته، في قدراته المقاومة، توجب علينا امتلاك النساء، توجب علينا أن نبحث عنهنّ خلف الحجاب الذي يخفيهن، و المنازل التي يخفيهنّ الرجال فيها" ¹². بهذا كرس مسؤولو الإدارة الفرنسية أقصى تركيزهم على لباس الحجاب الذي صور كرمز لمكانة المرأة الجزائرية، و هم يعلمون جيداً قيمة هذا اللباس من الناحية الثقافية، خاصة إذا علمنا أنّ العديد من الملاحظين قد أقرّوا أنّ الحجاب قد زاد تداوله في الجزائر تحت حكم الاستعمار الفرنسي احتفاءً من الأجنبي، و ترسيخاً للتمايز بين المجتمعين: المحلي المسلم، و المستعمر المسيحي ¹³، و أضحى حجاب النسوة في الجزائر ملجأ لهوية مقاومة لتسلل المستعمر الفرنسي وسط الأسرة.

لقد كانت الاستراتيجية الكولونيالية واضحة في موضوع المرأة، فلا بد من تحريرها من قبضة التقاليد و الأعراف، و تحريرها من هذا النظام البطريقي الذي قهرها و جعلها حصناً منيعاً أمام محاولات الاختراق الثقافي. و استعملت الإدارة الكولونيالية كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف، فمن الناحية الأدبية كان الهدف واضحاً على لسان جون بومبي Jean POMMIER الأمين العام لجمعية الكتاب الجزائريين و هو يعبر عن موقف تيار "الجزارة"، و هو تيار أدبي-سياسي فرنسي ظهر لدى الكتاب الفرنسيين المناصرين لفكرة الجزائر للجزائريين (و هم يقصدون الفرنسيين و أبناء الكولون المولودين بالجزائر) و الداعين إلى التحرر من هيمنة المتروبول: "... و في النهاية أقول: ما هو الواجب الأدبي الجزائري؟ إنه استعمار الجنس الجزائري فكرياً (أو بعبارة أخرى فرنسته)، و لكن ماذا سيكون هذا الجنس؟ سيكون عرقياً أي شيء إلا فرنسياً (أي لن يكون عرقياً فرنسياً)، و لن يكون أي شيء من الناحية الفكرية إلا فرنسياً. إنّ الجزائر سوف تخلد ثقافة فرنسية أو لن تكون... ¹⁴، و اعترف بومبي و غيره أنّ أهم عائق أمام هذا المسعى هو الحصن العائلي الذي تقوده المرأة الجزائرية. هذا من الناحية الأدبية، أمّا من ناحية الإنتاجات

الثقافية الأخرى فلقد درس أستاذنا عبد الغني مغربي تاريخ السينما الفرنسية في الجزائر، و خرج بنتائج مهمة، منها أن السينما الفرنسية في الجزائر كانت تخدم الفكرة الكولونيالية يقودها في ذلك هذا الكل المتضامن المؤيد بالتضامن الشامل¹⁵.

لاحظ الدكتور مغربي أن الجماهير لم تكن قد تأثرت بالسينما لأن معظم الدور المخصصة لها كانت في المدن الساحلية حيث الجالية الفرنسية، و لاحظ ثانيا أن السينما الفرنسية كانت استعمارية في مواضيعها، و كانت مناظرها سياحية بالدرجة الأولى (و هي نفس ملاحظة مساعدي حول الأعمال الأدبية)، و كان وجود الإنسان الجزائري فيها جزءا من الديكور الاستعماري بهدف السخرية منه. و قد لخص مغربي المواضيع التي دارت حولها السينما الاستعمارية فكانت:

1- السخرية من المستعمر مثل أفلام " المسلم المضحك" و " علي يأكل الخبز بالزيت"

2- الاختلاط الجنسي و منها أفلام: "أرواح مسورة" و "أوجه مبرقة"

3- الغراميات المثيرة و منها: " الماسة الخضراء" و "صراع بين جيلين" و " الرمال"

4- رسم المستعمر، و منها: "البلد"، و " الأمير جون"، و "المغامر"، و "في أفق الجنوب"

5- المرأة المستعمرة، و منها: " في ظل الحريم"، " الشهوة"، و "المرأة و العنديل"

6- الصليب في خدمة المستعمر، و منها: "تداء الصمت"، و "الطرق المجهولة"

7- السيف في خدمة المستعمر، و منها: " الرقيب"، " المنبذون"، و " وسام الشرف"

8- المنحرفون الأوروبيون، و منها: " الرمال المتحركة"، و "ريح السموم".

و كان من نتائج هذه السينما التأثير على بعض الفئات الاجتماعية القليلة. و الملاحظ على هذه المواضيع تردد موضوع المرأة و ما تعلّق بها من غراميات أو اختلاط جنسي أكثر من مرة، و إن دلّ هذا على شيء إنما يدل على الأهمية التي تلعبها المرأة الجزائرية في الحفاظ على الثقافة المحلية، و هو نوع من المقاومة لم يستطع الفرنسيون محاربتة بالمواجهة لأنّ ذلك إعلانا صريحا بالفشل كما أكد عليه منظرو الفكرة الكولونيالية. و لم تكن هذه المصاحبة الفكرية و الثقافية للمشروع الاستعماري الطريقة الوحيدة في معركة المرأة، بل حاول الكولونياليون المدنيون أيضا طرقا أخرى تعلّقت من جهة بالجانب الاقتصادي المعيشي حيث شجعت الإدارة الفرنسية و كبار الملاك المرأة على نزع لباسها التقليدي (الحايك، الملاية، الجبة. الخ) مقابل امتيازات اقتصادية خاصة وقت الأزمات الاقتصادية أين تقل المواد الغذائية، حيث يمنح لكل امرأة نزعت لباسها الساتر مواد غذائية كالسكر و القهوة و الزيت. و من جهة ثانية كان المسؤولون الإداريون و تحت غطاء الإدماج و الاندماج يحثون عمالهم الجزائريين على حضور الاحتفالات و الاحتفالات التي تنظم في المناسبات المختلفة، و يجبروهم على إحضار زوجاتهم أو أخواتهم إلى هذه الاحتفالات المختلطة، وهو ما كان يضع الجزائريين في حرج كبير. و قد ذكر فرانس فانون في كتابه القيم

"سوسيولوجية ثورة" الكثير من هذه المواقف. و هو دليل قاطع على رغبة الفرنسيين في نشر ثقافتهم بالدخول إلى لب العائلة و الأسرة الجزائرية كونه السبيل الوحيد للقضاء على المقاومة الشخصية الجزائرية ليتحقق المسخ الثقافي الذي سطره المشروع الاستعماري.

3- المرأة الجزائرية بين ما كتبه الجزائريون و ما أبرزه الواقع:

" الجزائرية حطمت كل أشباه الحقائق التي عملت الدراسات الميدانية على تضخيمها... الجزائرية مثل أخوها الرجل أظهرت بصورة لامعة ميكانزمات دفاع سمحت لها اليوم أن تلعب دورا أساسيا في عملية التحرير " ¹⁶. هي عبارة صرح بها فرانز فانون و هو يتحدث عن سوسيولوجية الثورة الجزائرية من منطق الدراسة الميدانية بل من منطق الملاحظة بالمشاركة - و هو الذي كلّف من طرف قيادة الثورة بمهام دبلوماسية و إعلامية رسمية- لها أكثر من دلالة حول موضوع المرأة الجزائرية.

الواقع الذي وصفه فانون يفند أشباه الحقائق التي أتت بها الدراسات الميدانية للأنثروبولوجية الكولونيالية (و لهذا السبب اعتبرت الأنثروبولوجيا في الجزائر في عهد الرئيس بومدين علما استعماريًا ، و منع تدريسها): "...عن مكانة المرأة، عن زعم السجن، التهميش الرديكالي، احتقارها، تواجدها الصامت الذي يثبت عدم التواجد، و المجتمع الإسلامي الذي لم يمنحها أيّة مكانة، و نزع شخصيتها و لم يسمح لها لا التألّق، و لا النضج. واضعا إياها في قصور دائم... هذه التأكيدات الموضّحة ب "أبحاث علمية" تستقبل اليوم الملاحظة الوحيدة الصحيحة: التجربة الثورية... المرأة الجزائرية و هي تفرض على نفسها مثل هذه القيود (الاحتشام، التقوقع على الذات، الاختفاء داخل البيت، الاختفاء وراء الحجاب، عدم مخالطة العنصر الغربي)، و باختيارها شكل تواجد محصور في الفضاء فهي تعمّق وعيها النضالي، و نحضّر نفسها للقتال ¹⁷ .

إنّ كلام فرانز فانون يجرّنا للتساؤل عن حقيقة الكتابات و الدراسات عن مكانة المرأة الجزائرية سواء أكانت هذه الدراسات أجنبية (و غالبيتها فرنسية كولونيالية) أم جزائرية : هل النظام العائلي في الجزائر أموسي أم بطريقي قاهر للنساء كما يحلو للأنثروبولوجيا الكولونيالية قوله؟

الإجابة عن هذه التساؤلات نجده لا التنظيرات المجردة، و إنّما في أرض الواقع. إنّ التجربة الثورية في الجزائر قد أزلت الغبار عن كثير من الحقائق المشوّهة التي عمل الاستعمار على ترسيخها في المعتقد. الحرب الثورية ليست حرب رجال فقط، فهي لا يقوم بها جنود أساسيون و احتياطيون، الحرب الثورية كما تبناها الجزائريون هي حرب شاملة لم تكن المرأة فيها تقوم فقط بالطرز و البكاء على الجنود، بل كانت في قلب المعركة، معتقلة، معذّبة، مغتصبة و مضروبة، إنّها لامست واقعا عنف المحتل و عدم إنسانيته. ذلك أنّ المحتل فسّر فشله و تعرّيه بانهزامه في معركة المرأة، حيث ظهر له أنّ المجتمع الجزائري ليس هو المجتمع الخالي من النساء الذي وصفه المحتلون و عملاؤهم ¹⁸.

خلف النظام البطريقي الظاهر كان يوجد نظام أموسي قاعدي تلعب فيه الأم و الجدّة، و العمة، و الخالة، و الأخت دورا بارزا و هاما، فهي التي كانت الحافظة للقيم و المعايير، و هي التي كانت محرّكة للسلوكات الإيجابية للرجل، و التي تتحدّد بها المواقف التي تسمى "رجولية". و في هذا السياق يحضرنا لقطة من فلم سينمائي لكاتب أنثروبولوجي جزائري هو مولود معمري، و من إخراج جزائري كذلك أحمد راشدي تخص في فلم "العفيون و العصا" مقتل بطل الفلم في لقطة شهيرة جدا يعرفها كل الجزائريين لدرجة أنّها أصبحت عنوان الرجولة، و هي عبارة " علي موت واقف"، و اللقطة التي نتحدّث عنها كانت قبل لحظات من هذا الموقف، و هي ردّة فعل سيد علي كويرات بطل الفلم لدى سماعه جواب أخته لسؤال الضابط الفرنسي: أتعرفين من هذا؟ فأجابت بكل فخر و اعتزاز: "خويا"، وكانت ردّة فعله بحركة الصدر إلى الأمام، و هي تعني الفخر و الاعتزاز بأداء الواجب، و بتشريف أخته و العائلة. فلولا وجود مثل هذه المرأة التي تمثّل في هذه الحالة الأخت لما وجد هذا النظام القيمي المبني على الواجب و الشرف و الرجولة. و صاحب الرواية و هو يكتب سيناريو الفلم كان يدرك جيّدا هذا النظام القاعدي الأموسي كيف لا و هو الانثروبولوجي الجزائري.

هذا عن مكانة المرأة و حقيقة ما كتبه الكولونياليون، لكن ماذا عن الكتاب الجزائريين؟ ماذا عن مكانة المرأة في كتابات الجزائريين المعاصرين؟..... في الحقيقة الموضوع أوسع من أن تسعه بعض الصفحات في هذا المقال، لكن لا مناص من محاولة طرح النقاش الأكاديمي حول الموضوع.

مشكلة موضوع المرأة في اعتقادنا هي اختزال موضوع التفهقر و التخلف على المرأة وحدها، في حين أنّه يخص المجتمع العربي برمّته، فلا يجب أن نتناول موضوع المرأة دون أن نتناول معها موضوع الرجل كمتلازمة اجتماعية، لأنّهما في الواقع لا ينفصلان. و كان أحد عيوب الدراسات التي تناولت موضوع المرأة هي تناولها لموضوع المرأة كموضوع منفصل، في حين أنّه لا يمكننا الفصل في الحديث بين مكانة المرأة و مكانة الرجل، و مكانة الأسرة في النظام الاجتماعي العام، و العلاقات الناشئة بينهما داخل المجتمع. و إذا كان هذا الخطأ المنهجي مقصود من طرف باحثي و كتاب التيار الاستعماري لأغراض أيديولوجية بحثية، إلّا أنّ الكتاب الجزائريين فعلوا ذلك إمّا تغافلا عن الحقيقة المنهجية أم تأثّرا بما كتبه الغربيونعمومان و الفرنسيون على وجه التحديد.

و قد بدأ الجزائريون يكتبون عن موضوع المرأة منذ انتشار الصحف و المجلات الآتية من المشرق العربي في العشرية الثانية من القرن الماضي - و قد ذكر أبو القاسم سعد الله العديد منها في تاريخه الثقافي للجزائر - حيث اطّلع الجزائريون فيها على مختلف الآراء المتداولة حول الخلافة و الإسلام و القومية، و حول موضوع تحرير المرأة، و مسألة الحجاب و السفور و تعدّد الزوجات و غيرها¹⁹. وكثيرا ما عولجت المسائل المتعلّقة بالمرأة في سياق واحد شمل التعليم، و الخروج إلى الشارع، و الاختلاط في المدارس، و السفور، و الحجاب، و لغة التعليم و محتواه، و مكافحة الآفات الاجتماعية مثل ظاهرتي الطلاق و الدعارة.

و الملاحظ على ما كتبه الجزائريون حول موضوع المرأة أنهم منقسمون في موقفهم منها إلى قسمين كبيرين: قسم متطّلع إلى مجازاة المجتمعات المعاصرة على الطريقة الغربية، يرى أنّ النظام الاجتماعي في الجزائر هو نظام بطريقي قاهر للمرأة، واضعا إياها تحت سيطرة الرجل باسم الأعراف و التقاليد و الشرعية الدينية. و قسم آخر متأثر بالحركة التراثية التي ترى أنّ حرية المرأة لا يمكن أن تكون على الطريقة السويفية إلا إذا استعيد التراث الإسلامي في واقع الممارسة اليومية ، و هو الكفيل بذلك. و الدليل على ذلك ما وقع للمرأة الغربية اليوم من تحلل و تشتت و خراب و اغتصاب للحرية الفردية باسم الحرية المطلقة، التي لم تنجح في نزع الحكم القيمي الممارس ضد المرأة كونها سلعة جنسية ، أو شيء جميل في الديكور العام ، و هو ما يظهر في بلاطوهات الحصص التلفزيونية.

يرى القسم الأول أنّ القوانين المختلفة التي وضعت بخصوص المرأة و العائلة (قانون الأسرة) الكثير منها متناقض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، و هو ما ذهب إليه عبد القادر جغلون مثلا²⁰. و بعضها معاكس للكلمة القرآنية لدرجة أنّها و باسم الدين سرقت السلطة الأسرية لمصلحة الجماعة الذكورية التي ما فتئت أن قنّنت بل شرّعت الاضطهاد الجنسي للمرأة و هو رأي نور الدين طوالي²¹. كما يرى آخرون أنّه في ظل الأنظمة التعسفية المبنية على التفرقة (سواء كانت الانظمة العربية الحالية أم لما كانت المجتمعات العربية خاضعة للسيطرة الأجنبية) لم تجد مسألة تربية المرأة و تحريرها من الجهل، ثم من سيطرة الرجل مكانا لها ضمن المقاومة من أجل البقاء و الكفاح من أجل الهوية و الهوية الثقافية، ما عدا في حالات معارضة مشروع الأحزاب الإسلامية كما كان الحال في الجزائر أيام الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

و يتّهم أصحاب تحرير المرأة الفريق التراثي أنّ أصحابه لا يزالون يعتقدون بكل قوة أنّ حبس المرأة داخل البيت هو ليس فقط سلوكا سويفا من الناحية الأخلاقية، و لكن أيضا واجبا لأنّه أفضل طريقة للحفاظ على النساء من الرجال الغرباء عن العائلة و من أنفسهم أيضا، لأنّهن ضعيفات و غير عاقلات، و بالتالي غير مسؤولات عن أفعالهن²².

أمّا الفريق الثاني، فيرى أنّ معالجة هذه المسألة تحتاج إلى تأني و صبر، فالمشكلة ليس تحرير المرأة، و إنّما تكوينها لتلعب الدور المنوط بها (غالبا ما يحصر في التربية و الرعاية و شؤون البيت)، أمّا مسألة الحجاب فهي مسألة ثانوية إذا ما قورنت بمستوى الرمزية الذي يمثله هذا الحجاب، فأغلب النساء في المجتمع الجزائري (خاصة في المدن الداخلية و الأحياء الشعبية) يرتدين ما يعتقدونه حجابا، إلا أنّه لا يحقق الشرط الرمزي فلا حجاب غير الخلق الحسن و العقيدة الإسلامية الصحيحة، و الشرف و الفضيلة، و الرفعة و النزاهة كما يقول أبو الأعلى الزواوي²³. يرى هذا الفريق أنّ الفريق الأول لا يعرف شيئا عن المسألة الدينية إلا أمورا سطحية، و لا يدرك المخاطر الناجمة عن اتباع ثقافة المجتمعات الغربية. كما يرى هذا الفريق أنّه ليس ضد عمل المرأة ما لم تنتهك محارم الشريعة.

على كل ، تبقى هذه الآراء مجرد مواقف لا تمثل إلا أصحابها و ما يمثلونه من فئات اجتماعية. و لن تقف هذه الآراء حائلا دون تغيير الثقافات و تطورها، و تحوّل قيمها و معاييرها. لكن هذه الآراء إنّما تعبّر عن واقع وجودي لفئات اجتماعية ترى أنّها على حق، و تحاول فرض واقعها على الآخر. لكن المنطق السوسيولوجي يجبرنا على دراسة الواقع كما هو، على ملاحظته الدقيقة ليتسنى لنا رؤية ما يمكن رؤيته عن حالة المرأة. و المرأة الجزائرية حاليا موجودة في واقع مليء بالتناقضات التي فرضتها التجربة الاستعمارية، و التجربة الثورية، و التجربة الإسلامية على مدار التاريخ الطويل للجزائر.

و خلاصة القول في هذه النقطة أنّ التجربة الثورية في الجزائر أثبتت واقعيّا كذب و إفك الدراسات الأنثروبولوجية للمدرسة الكولونيالية فلا المرأة أمة الرجل، و لا هي بمرتبة العبد، و لا هي سيّدة عليه. كما يثبت الواقع الآن إمعة موقف الفريقين المتخاصمين، فالمجتمع الجزائري ليس مجتمعا غريباً، كما أنّه ليس إسلامياً (و لا أقول مسلما) كما هو في فكر الفريق التراثي. و بالتالي مكانة المرأة فيه لا هي متحرّرة على شاكلة المرأة الغربية، و لا إسلامية على شاكلة الأفلام الدينية. المرأة الجزائرية محلّية الصنع- إن صح التعبير- تدينها محلّي، تحرّرها محلّي و لو وضعت على المحك كما كان الحال أيام الثورة التحريرية لرأينا منها العجب العجيب، و لزلت في أذهان الناس المكانة التي استوردت من مجتمعات أخرى.

قائمة المراجع:

1. FANON (Franz). **sociologie d'une révolution**, Paris : Ed François Maspero, p48.
2. IBID
3. IBID
4. DEPONT(Octave). **L'Algérie du centenaire**, Paris :SIREY,1928,p46.
5. YAHIAOUI(Fadhila).**roman et société coloniale dans l'Algérie de l'entre deux guerre**, Alger :ENAG, 2006, p210.
6. HANOTEAU(Adolphe) et LETOURNEUX (Aristide Horace). « de la femme à l'esclave il n'y a qu'un pas ». **La Kabylie et les coutumes kabyles**, Paris :CHALLAMEL,1893, tome2, 1947,p142.
7. BRUNSCHVIG(Robert) **La berbérie orientale sous les hafides**, Paris : Ed Adrien MAISONNEUVE, publications de l'institut d'études orientales d'Alger,tome2, 1947,p15.
8. مساعدي، سكيّنة . **روايات الاستعمار و المرأة المستعمرة في الجزائر** ، تر: نادية الأزرق بن جدة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ENAG ،2012،ص33.
9. نفس المرجع ، ص29.
10. نفس المرجع ، ص452.
11. FANON (Franz), OPCIT, p20.
12. IBID.
13. قشّي (فاطمة الزهراء)، " المسألة النسوية في الجزائر في العشرينيات من القرن الماضي: تطلّع إلى الحضور " . **النساء العربيات في العشرينيات حضورا و هوية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، سبتمبر 2010، ص 371.
14. بومي، جون. " الحركة الأدبية الفرنسية بالجزائر، ما هي عليه و ما يجب أن تكون عليه". **المجلة الكبرى**، جوان 1923، ص 635.
15. MEGHERBI(Abdelghani). **Les algériens au miroir du cinéma colonial** , Alger :SNED,1982, p258.
16. FANON (Franz), OPCIT, p49.

IBID.17

IBID.18

19. قشي، فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص 367.

DJEGHLOUL(Abdelkader). **Lettres pour l'Algérie**, Alger :ANEP, 2001, p84..20

TOUALBI (Noureddine) , **Le sacré ambigu**, Alger :ENAL,1984,p94..21

BENNOUNE (Mahfoud) , **Les algériennes victimes de la société néo patriarcale**, 22
Alger :ED MARINOOR, 1999, p11.

23. قشي (فاطمة الزهراء)، المرجع السابق ، ص 371 نقلا عن :ناصر، "المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها،
تطورها، أعلامها 1903-1931".